لمحات من سيرة عثمان بن عفان
ـ رضي اللّه عنه ـ
من الولادة إلى الشهادة

نسبه:

هو : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب[1]، ينتسب إلى بني أمية؛ إحدى القبائل القرشية

ولادته ونشأته:

ولد في مكة، بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح[2] ونشأ على الأخلاق الفاضلة الكريمة، والسيرة الحسنة الحميدة، وكان حيياً، شديد الحياء[3]، عفيف النفس، واللسان، أديب الطبع، هادئاً يتجنب إيذاء الناس، ويميل إلى الهدوء، ويكره الفوضى، والشجار، والصخب، وقد يضحي في سبيل البعد عن ذلك ولو بحياته[4].

ولحسن خلقه، ومعاملته؛ أحبته قريش حتى ضربت العرب المثل بحبها له.

---

(١) ـ ابن سعد، الطبقات ٣/ ٥٣، وابن حجر ، الإصابة ٢/ ٤٦٢.

(٢) ـ ابن حجر الإصابة ٢/ ٤٦٢ .

(٣) ـ سيأتي ص ٣٨ - ٣٩ شهادة النبي ﷺ له بأنه رجل حيي، وانظر الزهد للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٩ ، وحيلة الأولياء لأبي نعيم ١/ ٥٦ .

(٤) ـ كما سيأتي في تضحيته بنفسه وإيثاره ذلك على قتال الخارجين عليه، انظر ص ١٥٩ - ١٦٨ من هذا الكتاب.

وفي ذلك يقول الشعبي: «كان عثمان في قريش محبباً يوصون إليه، ويعظمونه، وإن كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهي تقول:

أحبك والرحمن * * * حب قريش لعثمان[1]

نشأ عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ وأطل على هذه الحياة، وهو بين مشركي قريش الذين يعبدون الأصنام، فنبذ في نفسه ما هم عليه من شرك ووثنية، وعادات قذرة.

فتجنب أرجاسهم الجاهلية، فلم يزن ، ولم يقتل قط[2] ، ولما أمر اللّه رسوله ﷺ بالدعوة الى الله، ودخل أبو بكر الصديق في الإسلام، ذهب إلى عثمان ـ رضي الله عنهما ـ يدعوه إلى الإسلام، فتأمل عثمان في هذه الدعوة بهدوء. كعادته في معالجة الأمور ـ فوجد أنها دعوة إلى الفضيلة، ونبذ للرذيلة، دعوة إلى التوحيد، وتحذير من الشرك، دعوة إلى العبادة وترهيب من الغفلة،ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وترهيب من الأخلاق السيئة.

ثم نظر إلى قومه، فإذا هم يعبدون الأوثان، ويأكلون الميتة، ويسيئون الجوار، ويستحلون المحارم من سفك الدماء وغيرها[3].

وإذا بالنبي محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ صادق أمين، يعرف عنه كل خير، ولا يعرف عنه شر قط، فلم تعهد عليه كذبة، ولم تحسب عليه خيانة، فإذا هو يدعو

---

(١) ـ رواه ابن الأعرابي في معجمه (ق٨٨أ) ومن طريقة ابن عساكر، تاريخ دمشق ترجمة عثمان ٢٤٥، من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي به.

(٢) ـ ابن سعد الطبقات ٣/ ٦٧،وابن عساكر تاريخ دمشق ، ترجمة عثمان بإسناد صحيح انظر الملحق الرواية رقم: [١٣٠].

(٣) ـ انظر في ذلك وصف جعفر بن أبي طالب لما كان عليه المشركون وما جاء به الرسول ﷺ في (السير والمغازي لابن إسحاق [٢١٤ ـ ٢١٥]، من رواية يونس بن بكير؛ بإسناد حسنة عادل عبد الغفور (مرويات العهد المكي من سيرة النبي ﷺ ٢/ ٨٠٥).

إلى عبادة الله وحده، لاشريك له، وإلى صلة الرحم،وحسن الجوار، والصلاة والصوم وألا يعبد غير اللّه[1].

فأسلم عثمان، على يد أبي بكر الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ فكان من السابقين الأولين إلى الإسلام[2].

فلم يدعه قومه، بل آذوه، وعذبوه مع إخوانه المؤمنين السابقين إلى الإسلام، وعدوا عليهم، وفتنوهم في دينهم ليردوهم إلى عبادة الأوثان من عبادة اللّه تعالى، وأن يستحلوا من الخبائث، فلما ازداد عليهم الأذى، والتعذيب وقهروهم، وظلموهم وضيقوا عليهم، وحالوا بينهم وبين دينهم[3]. خرجوا إلى الحبشة، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهم ـ ومعه زوجه رقية بنت النبي محمد بن عبدالله ـ ﷺ، ورضي عنها ـ[4] فكان أول من هاجر بأهله من هذه الأمة[5].

فرَّ بدينه تاركاً وطنه وأهله، في سبيل التمسك بدينه وعقيدته، مما يبين مدى إيمانه ويقينه وتعلقه بربه وآخرته.

تحمل الغربة، فقد مركزه التجاري،ومكانته الاجتماعية، بين أهل مكة، وشخصيته المرموقة، وانتقل إلى بلاد غير بلاده لله، وفي اللّه لا لتجارة دنيوية، ولا لربح مادي، إنما لتجارة أخروية؛ للفوز بالجنة والنجاة من النار.

ثم لما أشيع أن أهل مكة قد أسلموا ، وبلغ ذلك مهاجري الحبشة، أقبلوا حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فدخلوا في جوار بعض أهل مكة، وكان فيمن رجع عثمان بن عفان وزوجه رقية ـ

---

(١) ـ ابن حجر، الإصابة ٤٦٢.

(٢) ـ المصدر السابق.

(٣) ـ السير والمغازي لابن إسحاق (٢١٤ـ ٢١٥)، من رواية يونس بن بكير؛ بإسناد حسنه عادل عبدالغفور(مرويات العهد المكي من السيرة النبوية ٢/ ٨٠٥).

(٤) ـ رواه البخاري، الجامع الصحيح مع فتح الباري ٧/ ٢٦٣ .

(٥) ـ ابن حجر، الإصابة ٤/ ٣٠٥ .

رضي الله عنهما [1].

وبقي عثمان في مكة، يلقى الأذى والقهر من أهل مكة، ولم يرده ذلك عن دينه حتى هاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة النبوية ومعه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فهاجر معهم عثمان ـ ، فكان ممن هاجر الهجرتين [2].

وثبت ـ رضي اللّه عنه ـ على إيمانه ، بل كان إيمانه يزداد يوماً بعد يوم، ومكث في المدينة، لا يفارقها إلا ويسارع إلى العودة إليها، فقد صحح الحافظ ابن حجر عنه أنه كان لا يودع النساء ـ أي : وهو خارج من مكة ـ إلا على ظهر راحلته، ويسرع الخروج خشية أن يرجع في هجرته[3].

وكان له في عهد النبي ـ ﷺ ـ مكانة عالية، يعرفها الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ وينزلونه إياها، وفي ذلك يقول ابن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ: «كنا في زمن النبي ـ ﷺ ـ لا نعدل بأبي بكر أحدا ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا تفاضل بينهم»[4] [5]

ومما يبين مكانة عثمان رضي اللّه عنه ـ عند النبي ﷺ ـ أنه كان ذات يوم قاعداً في مكان فيه ماء قد كشف عن ركبتيه (أو ركبته) فلما دخل عثمان غطاها[6].

---

(١) ـ ابن هشام ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).

(٢) ـ رواه البخاري في صحيحه (فتح الباري ٧/ ٣٦٣) .

(٣) ـ ابن حجر، فتح الباري ٢/ ٥٧١.

(٤) ـ رواه البخاري، الجامع الصحيح مع فتح الباري ٧/ ٥٣ - ٥٤.

(٥) ـ قال الحافظ ابن حجر: "قال الخطابي: إنما لم يذكر ابن عمر علياً لأنه أراد الشيخ وذوي الأسنان الذين كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر شاورهم، وكان علي في زمانه ﷺ حديث السن، قال: ولم يرد ابن عمر الازدراء به، ولا تأخيره عن الفضيلة بعد عثمان ا هـ، وما اعتذر به من جهة السن بعيد لا أثر له في التفضيل المذكور، وقد اتفق العلماء على تأويل كلام ابن عمر هذا لما تقرر عند أهل السنة قاطبة من تقديم علي بعد عثمان، ومن تقديم بقية العشرة المبشرة على غيرهم ومن تقديم أهل بدر على من لم يشهدها وغير ذلك، فالظاهر أن ابن عمر إنما أراد بهذا النفي أنهم كانوا يجتهدون في التفصيل، فيظهر لهم فضائل الثلاثة ظهوراً بيناً فيجزمون به ولم يكونوا حينئذ اطلعوا على التنصيص. . .(فتح الباري ٧/ ٥٨).

(٦) ـ رواه البخاري، الجامع الصحيح مع فتح الباري ٧/ ٥٣ .

وكان ذات يوم مضطجعاً في بيت عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ـ فاستأذن أبو بكر، ثم عمر، وأذن لهما، وهو على حالته، ثم استأذن عثمان فجلس رسول اللّه ـ ﷺ ـ وسوى ثيابه، فقالت له عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ في ذلك، فقال : ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة[1].

وكان يقول أيضاً: «إنه رجل حيي»[2].

ولم يكتف عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ بالقيام بفرائض الإسلام من صلاة وصيام ودفع الزكاة بل قدم الغالي، والرخيص في سبيل نشر الإسلام، ونصرة المسلمين؛ فقد بذل في عهد الرسول ـ ﷺ ـ الكثير من ماله، نصرة للإسلام وعوناً للمسلمين.

فمن ذلك أنه لما قدم المهاجرون إلى المدينة، لم يكن بها ماء يستعذب غير بئر تسمى «رومة»[3] ولم يكن يومئذ مال للمسلمين، فقال النبي ـ ﷺ ـ : من يشتري بئر رومة، فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير منها في الجنة ، فاشتراها عثمان رضي الله عنه ـ من صلب ماله [4].

ومن ذلك ما كان منه في غزوة تبوك، فلما تهيأ النبي ـ ﷺ ـ للغزوة نقصت المؤن فقال: « من جهز جيش العسرة فله الجنة»، فلما سمع عثمان ذلك وكان رجلاً موسراً جهزه.

---

(١) ـ رواه مسلم ٤/١٨٦٦ ، من حديث عائشة ـ رضي اللّه تعالى عنها.

(٢) ـ رواه مسلم ٤/١٨٦٧ .

(٣) ـ رومة : بضم الراء وسكون الواو: أرض بالمدينة بين الجرف وزغابه، نزلها المشركون عام الخندق، وفيها بئر رومة ابتاعها عثمان بن عفان ـ رضي اللّه عنه ـ وتصدق بها (ياقوت، معجم البلدان ١٠٤٣).

(٤) ـ رواه أحمد، المسند ١/ ٧٤ ـ ٧٥ وبتحقيق أحمد شاكر ٢/ ١٣ ـ ١٤، وصحح إسناده، والترمذي في السنن ٥/ ٦٢٧ ـ ٦٢٨، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ٢٠٩ ، وانظر الملحق الروايات رقم: [١٦٤] و [٦٦] و [٧٦].

فجاء، وهو يحمل ألف دينار، فصبها في حجر النبي - ﷺ - فجعل - عليه الصلاة والسلام - يقلبها بيده ويقول : «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مراراً»[1].

وشهد - رضي الله عنه - مع النبي - ﷺ - المواقع كلها، فلم يتخلف عن غزواته إلا بأمر منه في غزوة بدر.

فقد أمره بالبقاء في المدينة، لتمريض[2] زوجه رقية بنت النبي - ﷺ -، وضرب له بسهم في الغنيمة والأجر، فامتثل الأمر وبقي في المدينة يمرضها، فلما توفيت[3] وخرج لدفنها، فجاء البشير بانتصار المسلمين في بدر، فلما عاد النبي - ﷺ - زوجه بأختها أم كلثوم - رضي اللّه عنها - ؛ فلذلك كان يلقب بذي النورين[4].

واستمر عثمان - رضي اللّه عنه - على ذلك طوال العهد النبوي، وكان عليه الصلاة والسلام، يخبره، ويخبر غيره من الصحابة - رضوان اللّه عليهم - المرة تلو الأخرى، بأن فتنة ستقع يكون فيها عثمان وأصحابه على الحق، ويشيرعليهم باتباعه عند وقوعها.

فمما صح عنه ﷺ في ذلك، ما رواه عبدالله بن عمر رضي اللّه عنهما قال: ذكر رسول اللّه ﷺ فتنة، فمر رجل فقال:

---

(١) - رواه أحمد، المسند، ٤/ ٧٥ ، ٥/ ٦٣، والحاكم في المستدرك، وقال الذهبي في تلخيصه: «صحيح» (٣/ ١٠٢)، ورواه الترمذي (تحفة الأحوذي ١٠/ ١٩١ - ١٩٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٨٥ ، وحسنه عبدالقادر حبيب اللّه السندي في كتابه مرويات غزوة تبوك ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) - ابن حجر ، الإصابة ٢/ ٤٦٢.

(٣) - ذكر ابن حجر أن مرضها هو الحصبة (الإصابة ٤/ ٣٠٥).

(٤) - ابن حجر، الإصابة ٢/ ٤٦٢.

«يقتل فيها هذا المقنع يومئذٍ» ، قال: فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان»[1].

ويروي كعب بن مرة [2] البهزي رضي اللّه عنه قصة مشابهة لهذه القصة، فقد سمع رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقرَّبها: فمر عثمان مقنَّعاً فقال النبي ﷺ، وهو يشير إلى عثمان: «هذا يؤمئذ وأصحابه على الحق والهدى».

وسواء أكانت هاتان الروايتان لقصتين اثنتين أم لواحدة، فإنَّ إخبار النبي ﷺ بقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ في هذه الفتنة ثابت في كلتا القصتين، وتضيف رواية كعب بأنه وأصحابه على الحق في هذه الفتنة.

مما دفع كعباً إلى زيادة التحري من الشخص المقصود بقول النبي ﷺ ، فقام إلى هذا الرجل، وأخذ بضبعيه، فإذا هو عثمان بن عفان، فاستقبل به النبي ﷺ وقال: هذا؟ فقال له النبي ﷺ: هذا [3].

وقد تأخرت وفاة كعب ـ رضي اللّه عنه ـ إلى ما بعد الخمسين من الهجرة ، ولم يرد أنه حضر يوم الدار ليخبر بهذا الحديث الناس ليرجع المغرر به منهم، فلعله كان في الشام حيث إنَّ وفاته كانت فيها.

---

(١) - رواه أحمد، المسند، ٢/ ١١٥ ، وبتحقيق أحمد شاكر ٨/ ١٧١، والترمذي، تحفة الأحوذي ١٠/ ٢٠٣ وصححه الحافظ ابن حجر، وأحمد شاكر، وتصحيح الحافظ له نقله المبار كفوري في الموضع السابق من التحفة، انظر الملحق الرواية رقم: [٥].

(٢) - كعب بن مرة ويقال: مرة بن كعب السلمي، صحابي، سكن البصرة، ثم الأردن، مات سنة بضع وخمسين ٤ (التقريب/ ٥٦٥٠).

(٣) - رواه أحمد، المسند ٤/ ١٠٩ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٥ / ٣٣، ٣٥، وفضائل الصحابة، ١/ ٤٤٨ ـ ٤٥٠، والترمذي في السنن، تحفة الأحوذي ، ١٠/ ١٩٨ ـ ١٩٩، وابن ماجة، السنن، ١/ ٤١ وفي صحيح سنن ابن ماجة، ١/ ٢٤، وابن الأثير، أسد الغابة ، ٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦، وصححه الألباني، انظر الملحق الروايات رقم: [٦-٨].

ويبدو أنَّ تحديث كعب للناس بهذا الحديث، لم يكن إلا بعد الفتنة بسنوات، يستشف ذلك من خلال رواته عنه، فقد رواه عنه كل من: محمد بن سيرين[١]، وعبدالله بن شقيق[٢]، وأبو الأشعث الصنعاني[٣].

ومحمد بن سيرين ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان رضي اللّه عنه، فإذا قدرنا سماعه منه وهو في الرابعة عشرة، فإنه يكون قد حدثه به بعد الفتنة باثنتي عشرة سنة.

أما رواية أبي الأشعث فجزماً بأنها كانت، بعد الفتنة، فإن مضمون الرواية ينص على أنها كانت في خلافة معاوية رضي الله عنه، وعبدالله بن شقيق من طبقتهما.

ومنها ما راواه أبو هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ وذلك عندما استأذن عثمان يوم الدار للحديث، فلما أذن له قام فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

إني سمعت رسول اللّه عليه وسلم يقول: "إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافاً، فقال قائل من الناس: فمن لنا يارسول الله؟، فقال عليكم بالأمين وأصحابه وهو يشير إلى عثمان بذلك[٤]".

ومن هذه الروايات ما يحدد فيه النبي ـ ﷺ ـ تاريخ وقوع هذه الفتنة وذلك فيما رواه عبدالله بن مسعود رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال:

---

(١) ـ انظر الملحق الرواية رقم: [٦].

(٢) ـ انظر الملحق الرواية رقم: [٧].

(٣) ـ انظر الملحق الرواية رقم:[٨].

(٤) ـ رواه أحمد، المسند ٤/ ١٠٥ ، ١٠٩ ـ ١١٠ ، ٥/ ٣٣ ، باسناد صحيح ورواه أيضا ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عثمان ، ٢٨٩، انظر الملحق الرواية رقم: [٤].

«تدور رحى[1] الإسلام على رأس خمس وثلاثين أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين..»[2].

فهذا الحديث، يدل دلالة واضحة على أن الفتنة ستقع في سنة من هذه السنوات الثلاث. ويحتمل أن الشك إنما أتى من قبل أحد رواة الحديث، وعلى فرض صحة نسبة الشك إلى النبي ﷺ فالمعنى: أن ذلك يكون فيما يشاء الله عز وجل من تلك السنين.

ويحتمل أن يكون في الحديث تصحيف، وذلك بزيادة الهمزة قبل الواو، وأن الواو للعطف، فتكون هذه السنوات الثلاث كلها سني فتنة، والتاريخ يشهد لذلك فقد وقعت في هذه السنوات الثلاث، فتنة قتل عثمان رضي اللّه عنه، والفتن التي قامت في عهد علي رضي اللّه عنه وموقعة الجمل، وصفين.

وشاء اللّه ذلك في السنة الخامسة والثلاثين، باشتعال الفتنة التي انتهت بقتل عثمان رضي اللّه عنه[3].

ومن هذه الأحاديث ما يقرن فيه النبي ﷺ هذه الفتنة بفتنة الدجال من حيث قوة اجتذابها للناس، وافتتانهم بها، وأن من ينجو منهما فقد نجا.

---

(١) ـ الرحى هي : التي يطحن بها ابن منظور، لسان العرب ,١٤/ ٣١٢)

(٢) ـ رواه أحمد، المسند ١/ ٣٩٠، ٣٩٣ ـ ٣٩٤، وبتحقيق أحمد شاكر. ٥/ ٣٦٣ ـ٢٦٤، ٥ / ٢٧٦، وأبو داود، السنن ٤/ ٩٨، وفي عون المعبود ١١/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨،ويعقوب بن سفيان ،العرفة والتاريخ ١/ ٣٥٥، والبغوي، شرح السنة ١٥/ ١٨، والحاكم، والمستدرك ٣/ ١١٤، ٤/ ٥٢١ وابن عدي، الكامل ٢/ ٧٤٢، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وهو كما قالا، وصححه أيضا أبو الطيب آبادي، وأحمد شاكر، عون المعبود ١١/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨، والسلسلة الصحيحة ٢/ ٧٠٣، وانظر الرواية رقم[٩].

(٣) ـ الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٧٠٥.

وذلك فيما رواه عبدالله بن حوالة [1] رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«من نجا من ثلاث فقد نجا ـ ثلاث مرات ـ موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه»[2].

ومعلوم أن الخليفة الذي قتل مصطبراً بالحق، معطيًا القتل، أو الحق إنما هو عثمان ابن عفان رضي الله عنه.

فالقرائن تدل على أن الخليفة المقصود بهذا الحديث، هو عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفي الحديث ـ والله أعلم ـ لفتة عظيمة، إلى أهمية السلامة من الخوض في هذه الفتنة حسياً ومعنوياً، أما حسياً فذلك يكون في زمن الفتنة، من تحريض وتأليب وقتل وغير ذلك.

وأما معنوياً فبعد الفتنة من خوض فيها بالباطل، وكلام فيها بغير حق، وبهذا يكون الحدث عاماً للأمة، وليس خاصاً بمن أدرك الفتنة والله أعلم.

ومن الأحاديث التي أخبر فيها النبي ﷺ عن وقوع استشهاد عثمان بن عفان رضي اللّه عنه ما روى أبوموسى الأشعري رضي اللّه تعالى عنه أن النبي ﷺ أمره أن يبشر عثمان بالجنة على بلوى تصيبه [3].

---

(١) ـ عبد الله بن حوالة الأزدي، أبو حَوالة، صحابي نزل الشام، ومات بهاسنة ثمان وخمسين هـ ،وله ٧٢ سنة، ويقال مات سنة ٨٠، د، التقريب، ٣٢٨٧ .

(٢) ـ رواه أحمد ، المسند ، ٤/ ١٠٥ ١٠٩ ـ ١١٠ ، ٥/ ٣٣، ٢٨٨، وإسناده حسن أو صحيح، ورواه ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عثمان، ٢٨٩، انظر الملحق الرواية رقم :[٤].

(٣) ـ رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ٧/ ٢١ ـ ٢٢، ٤٣ ، ٥٢ - ٥٣ ، ١٠/ ٥٩٧، ١٣/ ٤٣ ، ٢٢٠، ومسلم في صحيحه ، ص ١٨٦٧ ـ ١٨٦٩ ، وأحمد، المسند ٤/ ٣٩٣، ٤٠٧ والترمذي، السنن ٥/ ٦٣١، وأبو نعيم ، حلية الأولياء، ١/ ٥٧ ـ ٥٨، والبغوي، شرح السنة، ١٠/ ١٠٨، وابن الأثير، أسد الغابة، ٣/ ٤٨٢، وابن عساكر، تاريخ دمشق ، ترجمة عثمان، ١٢، ١٢٢، =

وما روى أنس بن مالك ـ رضي اللّه عنه ـ أن النبي ﷺ كان ذات يوم على أحد[1]، ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف الجبل فقال النبي ﷺ: «اسكن أحد فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان»[2].

فالنبي والصديق معروفان ، ولم يبق لعمر وعثمان - رضي اللّه عنهما- إلا الصفة الثالثة، وهي الشهادة. فهذه شهادة من النبي ﷺ صريحة لعثمان - رضي اللّه عنه- بالاستشهاد في سبيل الله، وقد تكررت هذه الشهادة في قصة أخرى مرة ثانية، وعلى جبل آخر، وهو حراء[3].

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان ذات يوم على حراء ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ:

«اهدأ فما عليك إلا نبي، أو صديق ، أو شهيد»[4].

= ١٢٩، ١٣٣، ١٣٧ ـ ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤، والذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤١٥، انظر الملحق الرواية رقم: [١].

(١) ـ اسم لجبل بينه وبين المدينة النبوية قرابة ميل في شماليها ، وهو أحمر اللون، وبه سميت وقعة أحد، ياقوت، معجم البلدان ١/ ١٠٩.

(٢) ـ رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري ٧/ ٢٢ ، ٤٢، ٥٣، وأحمد ، المسند ٣/ ١١٢ والترمذي والسنن، ٥/ ٦٢٤، وأبو داود، السنن ٤/ ٢١٢، والنسائي، والسنن الكبرى ، كما في تحفة الأشراف، ١/ ٣٠٧ . والبغوي، شرح السنة ١٤/ ١٠٦ ، وابن الأثير ، أسد الغابة ٣/ ٤٨٤، انظر الملحق الرواية رقم: [٢].

(٣) ـ جبل من جبال مكة يقع على ثلاثة أميال من منى، كان النبي ﷺ يتعبد فيه قبل نزول الوحي عليه، وفيه أتاه جبريل عليه السلام، ذكره ياقوت في معجم البلدان ثم ذكر هذا الحديث وزاد أن ذلك كان في ذروة الجبل (٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

(٤) ـ رواه مسلم في صحيحه، ص ١٨٨٠ ، وأحمد، المسند ٢/ ٤١٩، والترمذي في سننه، تحفة الأحوذي، ١٠/ ١٨٦ ـ ١٨٧، والنسائي في السنن الكبرى ، كما في تحفة الأشراف، ٩/ ٤١١، انظر الملحق الرواية رقم: [٣].

وتحقق ما قاله ﷺ فقد استشهد كل من عمر، و عثمان، وعلي ، وطلحة، والزبير.

ولعلم النبي ﷺ بوقوع هذه الفتنة - بإخبار الله له-، ولشدة محبته لعثمان رضي اللّه عنه، وحرصه على مصالح الأمة بعده ، دعاه - ذات يوم - وأخبره بأشياء تتعلق بهذه الفتنة التي ستنتهي بقتله، وحرص عليه الصلاة والسلام على سرِّيتها، حتى إنه لم يصل إلينا منها إلا ما صرح به عثمان رضي اللّه عنه أثناء الفتنة لما قيل له: ألا تقاتل؟.

فقد قال : لا، إن رسول اللّه ﷺ عهد إليَّ عهداً، وإني صابر نفسي عليه[1].

ويظهر من قوله هذا، أن النبي ﷺ قد أرشده إلى الموقف الصحيح، عند اشتعال الفتنة، وذلك أخذاً منه ﷺ بحجز الفتنة أن تنطلق.

وفي بعض الروايات زيادة تكشف عن بعض مكنون هذ المسارَّة، فقد جاء فيها أن النبي ﷺ: قال له: «وإن سألوك أن تنخلع من قميص قمصك اللّه - عز وجل- فلا تفعل»[2].

ولا يدل ذلك على أن النبي ﷺ قد عهد إلى عثمان - رضي اللّه عنه- بعهد

---

(١) - رواه أحمد: المسند ١/ ٥٧ - ٥٨، ٦٩، وبتحقيق أحمد شاكر ١/ ٣٣٤، ٣٧٧، والترمذي في سننه، تحفة ا لأحوذي ٥/ ٦٣١ ، ١٠/ ٢٠٩ ، وابن ماجة، السنن ١/ ٤٢، وفي مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ١/ ١٩، وابن سعد، الطبقات ٣/ ٦٦ - ٦٧، وابن أبي شيبة، المصنف ١٥, ٢٠٢، والحميدي ، المسند، ١/ ١٣٠، وابن حبان في صحيحه، الاحسان في ترتيب صحيح ابن حبان / ٣٥ ٩، وأبو نعيم، حلية الأولياء ١/ ٥٨، وابن عساكر ، تاريخ دمشق، ترجمة عثمان ٢٨٣ - ٢٨٥، وذكره المحب الطبري، الرياض النضرة ٣/ ٥٩، كلهم من طريق عائشة رضي اللّه تعالى عنها، وصححه الكتاني، وأحمد شاكر والألباني ، انظر الملحق الرواية رقم: [١١].

(٢) - جاء ذلك في رواية الحميدي، والترمذي وابن ماجة؛ المتقدمة في الحاشية السابقة، وهي زيادة صحيحة، فإن راويها عند الحميدي هو :سفيان بن عيينة.

فيه خلافة، أو نحوها، كما يعتقد الروافض في علي رضي اللّه عنه، بل مضمون هذا العهد الذي ذكره عثمان - رضي اللّه عنه- يتعلق بالفتنة، والوصية بالصبر فيها وعدم الخلع كما تقدم.

وإن كان يفهم من هذه الأحاديث بأنه سيكون خليفة يوماً ما.

ويبدو أن هناك وصايا، وإرشادات تتعلق بهذه الفتنة، انفرد بمعرفتها عثمان رضي اللّه عنه، وذلك محافظة من النبي ﷺ على السرِّية فيها، ومما يبين ذلك أنه أمر عائشة رضي اللّه عنها بالانصراف[1]، عندما أراد الإسرار بها لعثمان رضي الله عنه.

كما أنه أسرَّ إليه إسراراً، رغم خلو المكان من غيرهما، حتى تغير لونه، مما يدل على عظم المسرِّ به، وربط عائشة رضي الله عنها هذا الإسرار بالفتنة دليل واضح على أن هذ المسارة كانت حول الفتنة التي قتل فيها.

فإنها ـ رضي اللّه عنها ـ كانت تسمع بعضاً منها، وفي ذلك تقول: فلم أحفظ من قوله إلا أنه قال: وإن سألوك أن تنخلع من قميص قمصك اللّه عز وجل، فلا تفعل[2].

وهذا دليل على أن الإسرار تضمن توجيهات منه ﷺ، إلى عثمان ليقف الموقف الصحيح عند عرض الخلع عليه.

وأن النبي ﷺ لم يقتصر فيه على الإخبار بوقوع الفتنة،فقد أخبر بذلك علانية ـ كما تقدم- فإسراره يدل على أن هذا الإسرار، تضمن أشياء أخرى زيادة على الإخبار عن وقوعها ، ورغب عليه الصلاة والسلام بالمحافظة على سريتها لحكمة اقتضت ذلك ـ اللّه أعلم بها ـ.

---

(١) ـ فقد قال لها النبي ﷺ: «تنحي»، ومعنى التنحي الانصراف. الفيروز آبادي، القاموس المحيط ٤/٣٩٦ وابن منظور، لسان العرب ١٥/٣١١.

(٢) ـ انظر الملحق الرواية رقم: [١١]

وهذا الحديث يفسر لنا جلياً سبب إصرار عثمان على رفض القتال أثناء الحصار كما يفسر أيضا سبب رفضه للتنازل عن الخلافة، وخلعها، عندما عرض القوم عليه ذلك.

وهما موقفان طالما تساءل الباحثون عن السبب الذي أدى عثمان إليهما واستشكلوهما.

وهذا كله يدخل في النفس زيادة في الاحتياط، والتحفظ عند الحديث عن مواقف عثمان ـ رضي اللّه عنه يوم الدار، إذ قد تكون تلك المواقف عملاً بنصائح وإرشادات النبي ﷺ، بل إن بعضها يجزم بأنه كذلك، كما في رفض الخلع.

هذا ما وقفت عليه من الأحاديث الصحيحة، عن النبي ﷺ التي تتعلق بفتنة مقتل عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ ، وقد رُويت أحاديث أخرى ، تَبَين لي بعد تحقيقها أنها ساقطة الأسانيد لا تصلح للاستدلال بها [1].

وحدث فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، يُعدّ ضمن قائمة كبيرة من الحوادث التي أخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حياته بأنها ستقع بعد وفاته[2]، ووقع عدد منها، وما بقي منها سيقع حتماً ولو بعد حين.

ولايدل ذلك على علم النبي ـ ﷺ ـ بالغيب فإن علم الغيب صفة من صفات اللّه جل وعلا، ليست لأحد من خلقه، وإنما ذلك علم أطلعه اللّه عليه وأمره أن يبينه للناس، كما أمره أن يبين للناس أنه لا يعلم الغيب المستقبل، وأنه لا اطلاع له

---

(١) ـ وقد خصصت لها موضعا خاصا في الملحق، لدراستها وكشف عللها، وذلك من الرواية رقم: [١٢]، إلى الرواية رقم: [٢١].

(٢) ـ ذكر جملة من ذلك البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٦٨٨ ـ ٧١٣.

على شيء من الغيب إلا ما أطلعه هو عليه[1].

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨][2].

وهذه المشيئة منه سبحانه وتعالى تعمُّ الرسول الملكي والبشري. وبذلك يفهم قوله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[3].

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[4]

لا شك أن عثمان رضي الله عنه ـ بعد سماعه لهذه الأحاديث، أيقن بتحقق ذلك يوما ما، وإن طال الزمان، فكان ينتظر وقوعه بين حين وآخر.

أنه سيقتل ظلما في فتنة تشتعل في خلافته، ويكون فيها على الحق هو وأصحابه، والنبي ـ ﷺ ـ أوصى باتباعه عند وقوع هذه الفتنة، إنها أخبار تخص عثمان -رضي الله عنه- تفرحه فرحة مشوبة بالقلق، فمتى وكيف سيكون ذلك؟.

عثمان ـ رضي الله عنه ـ رجل عاقل، حيي ـ بل شديد الحياء ـ ، لم ينازع في الإمارة لا في جاهلية ولا في إسلام، فلم ينازع أشراف مكة الرئاسة، ولم يطمع فيها، فإن خلقه، وسمته يأبيان عليه ذلك، ورغم ذلك فإنه سيكون أميرًا، ـ وإن كره ـ لم تدفعه تلك الأخبار إلى التتوق، والتطلع إلى الخلافة، فلم يناقش، ولم ينازع عندما توفي الرسول ـ ﷺ ـ ، ولم يتقدم بما معه من أدلة على أنه

(١) ـ انظر في ذلك تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ٢/ ٢٧٣ ، ٤/ ٤٣٣ .

(٢) ـ سورة الأعراف ، الآية ١٨٨ .

(٣) ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٥ .

(٤) ـ سورة الجن، الآية ٢٧.

سيكون خليفة بإخبار من النبي ـ ﷺ ـ ، بل بايع مع باقي المسلمين أبا بكر الصديق، ثم عمر ـ رضي الله عنهما ـ؛ فإنه يعلم فضلهما عليه وأحقيتهما بالخلافة قبله، وأنه لم يحن وقته.

وقضى أيام خلافتيهما، وهو على أحسن سيرة، حتى استشهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، على يد مجوسي حاقد[1].

وفي تلك الآونة بدأ المجتمع الإسلامي يصيبه بعض التغيير، فالإسلام انتشر وغزا بلاد الفرس، والروم، وفتحت بلادهم، وتظاهر بعض منهم بالإسلام ، وأبطنوا الكفر، وكانوا يخططون لهدم الإسلام، والوقيعة بأهله، فكان من ذلك استشهاد عمر ـ رضي الله عنه ـ على يد أحدهم.

وفي أثناء مرض عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ على إثر طعنة ذاك العلج المجوسي، دخل عليه عدد من الصحابة رضي اللّه عنهم ـ ، فقالوا له ـ: أوص يا أمير المؤمنين: استخلف.

قال: «ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر ـ أو الرهط ـ الذين توفى رسول اللّه ـ ﷺ ـ وهو عنهم راض» ـ فسمى عثمان وعلياً والزبير، وطلحة، وسعداً وعبدالرحمن.

وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء ـ كهيئة التعزية له ـ فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر، فإني لم أعزله عن عجز، ولا خيانة.

وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم. وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوؤوا الدار، والإيمان من

(١) ـ وهو : أبو لؤلؤة المجوسي، انظر تاريخ الإسلام للذهبي عهد الخلفاء الراشدين ص ٢٨١.

قبلهم، أن يَقبل من محسنهم، وأن يُعفى عن مسيئهم،وأوصيه بأهل الأمصار خيراً،فإنهم ردء الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو، وأن لا يُؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم.

وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم ويُرد على فقرائهم.

وأوصيه بذمة الله، ورسوله ـ ﷺ ـ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفون إلا طاقتهم.

فلما قبض، خرج الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ به، فانطلقوا يمشون، فسلم عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنهما ـ قال: يستأذن عمر بن الخطاب. قالت: أدخلوه[1]،فأُدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه. فلما فُرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط.

فقال عبدالرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي. فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف. فقال عبدالرحمن بن عوف: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشيخان [2] فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي والله علي أن لا آلو عن أفضلكم؟

(١) ـ وذلك أن عمر ـ رضي الله عنه ـ في أثناء اشتداد المرض عليه أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ليقول لها: يقرأ عليك عمر السلام . . . ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنَّه به اليوم على نفسي (صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/ ٦٠ ـ ٦١).

(٢) ـ لعل عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ خشي إن تبرأ من هذا الأمر أن يكون بذلك قد عصى أمر رسول اللّه ـ ﷺ ـ الذي قال فيه: «وإن سألوك أن تنخلع من قميص قمصك اللّه عز وجل فلا تفعل» (انظر ص١٤٧-١٤٩).

قالا : نعم.

فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول اللّه ـ ﷺ ـ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمّرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن. ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق. قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه[1].

وفي رواية أخرى للبخاري ـ أيضاً ـ أن عبدالرحمن بن عوف ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ قال لأهل الشورى:

لست بالذي أنافسكم على هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم. فجعلوا ذلك إلى عبدالرحمن، فلما ولوا عبدالرحمن أمرهم، فمال الناس على عبدالرحمن، حتى لم ير أن أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه ، ومال الناس على عبدالرحمن يشاورونه تلك الليالي، حتى إذا كانت الليلة التي أصبحوا منها، بايعوا عثمان ـ رضي الله عنه ـ .

وفي هذه الرواية يقول المسور بن مخرمة ـ رضي اللّه عنه ـ: طرقني عبدالرحمن بعد هجع من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت فقال: أراك نائماً، فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث[2] بكثير نوم. انطلق فادع الزبير وسعداً، فدعوتهما له، فشاورهما، ثم دعاني. فقال : ادع علياً، فدعوته فناجاه حتى ابهارَّ الليل[3].

ثم قام علي من عنده، وهو على طمع، وقد كان عبدالرحمن يخشى من علي شيئاً. ثم قال: ادع لي عثمان، فدعوته، فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن

---

(١) ـ رواه البخاري، الجامع الصحيح مع فتح الباري ٧/ ٦٠ ـ٦٢.

(٢) ـ أي الليال الثلاث؛ منذ اجتماع أهل الشورى الأول إلى ليلة بيعة عثمان بالخلافة.

(٣) ـ أي: انتصف (ابن منظور ، لسان العرب ٤/ ٨١).

بالصبح. فلما صلى للناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين، والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد ـ وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ـ فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال:

أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا. فقال: أبايعك على سنة الله، وسنة رسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبدالرحمن بن عوف، وبايعه المهاجرون، والأنصار، وأمراء الأجناد والمسلمون[1].

اتفق الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ على بيعة عثمان بن عفان بالخلافة، وفي ذلك يقول ابن مسعود ـ رضي اللّه عنه ـ: «استخلفنا خير من بقي ولم نأله» [2].

تولى الخلافة ـ رضي الله عنه ـ ، وكان على خير حال، وعلى درجة قوية من الإيمان، فقد كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة فلا تبكي! وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول اللّه ﷺ قال: القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد منه[3]، وكان يطيل التهجد[4].

ولعله توقع قرب تحقق ما أخبر به النبي ـ ﷺ ، مما دفعه إلى أن يلين في سياسته مع الناس، ويتخذ من المسامحة منهجاً في التعامل مع الرعية، تجنباً للفتن،

---

(١) ـ رواه البخاري، الجامع الصحيح مع فتح الباري ١٣/ ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) ـ ابن سعد، الطبقات ٣/ ٦٣، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عثمان ٢٠٧، وإسناده صحيح.

(٣) ـ رواه أحمد ، الزهد (ص ٤٢) ، والترمذي (السنن ٤/ ٥٥٣)، وابن ماجة (السنن ٢/ ١٤٢٦)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٤٢١، وفي صحيح الترمذي ٢/ ٢٦٧ .

(٤) ـ ابن سعد، الطبقات ٣/ ٧٥ ـ ٧٦، والزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٤٠، وغيرهما، وإسناده حسن، انظر الملحق الروايات رقم: [٩٠-٩٢].

وتخفيفاً من وطأتها إن وقعت، لأنها ستقع حتماً، لإخبار النبي ﷺ بوقوعها.

سار ـ رضي اللّه عنه ـ على هذه السياسة طوال فترة خلافته، ومع ذلك تحقق ما أخبر به النبي ـ ﷺ ـ ووقعت الفتنة المنتظرة.

وذلك في آخر عام من خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ أترى كيف وقعت، وما موقف عثمان فيها؟ وما مواقف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عند اشتعالها؟ فيما يلي تفصيل لأحداث هذه الفتنة؛ مبنية على الروايات الصحيحة والحسنة الواردة فيها.